اشتغال النصوص الموازية في الشعر المغربي
دراسة في آليات التوجيه

د. عبد الفتاح شهيد

مختبر البحث في اللغة والأدب والبيئة والثقافة

جامعة الحسن الأول، المغرب

Résumé :

Je cherche à travers cet article à mettre en évidence les mécanismes d'orientation et de dissimulation des paratextes de la poésie marocaine, compte tenu de l'intérêt de l'étude de la poésie de la marge avec ses grands potentiels esthétiques et ses énergies expressives créatives. Je veux examiner l'efficacité des paratextes d'après un texte du 11ème siècle de l'hégire, pour étudier les manifestations et les dissimulations de la poéticité, ainsi que les pratiques effectuées par les textes en terme d'orientation et d'illumination d'une part, et de dissimulation d'autre part. J'ai conclu, entre autres, que les paratextes tendent souvent à guider , restreindre et à unifier la lecture, alors que le lecteur de ces textes doit se montrer vigilant face au jeu de dissimulation et de divulgation pratiqué par les paratextes.

الملخص:

أسعى من خلال هذا المقال إلى إبراز آليات التوجيه والإخفاء التي تمارسها النصوص الموازية في الشعر المغربي، في ضوء الاهتمام الذي أصبحت توليه الدراسات للهامش، والذي كثيرا ما يفاجئنا بإمكاناته الجمالية الكبيرة و طاقاته التعبيرية الخلاقة. وأروم اختبار فعالية النصوص الموازية من خلال نص شعري من القرن الهجري الحادي عشر، لدراسة تجليات الشعرية ومضمراتها، وما تمارسه النصوص من توجيه وتنوير أحيانا ومن إخفاء وتعتيم أحيانا أخرى. وقد انتهيت، من بين ما انتهيت إليه، إلى أن النصوص الموازية كثيرا ما تنحو نحو توجيه القراءة وتسييجها وتوحيدها، مما يستدعي من القارئ التيقظ أمام لعبة الإخفاء والتجلية التي تمارسها.

إن الحديث عن النصوص الموازية هو حديث عن مفاهيم وإجراءات تميز الشعرية اليوم. وحين نروم مقاربة هذه المفاهيم وتلك الإجراءات من خلال نص شعري عربي في المغرب خلال القرن الهجري الحادي عشر، فإننا نسعى لأن ننفتح بهذا المتن الشعري على آفاق مستجدة تتجاوز الاحتفاء بالإخراج والتحقيق إلى المساءلة والكشف.

ومن خلال الأهمية التي أضحت تتميز بها النصوص الموازية نستمد هذا الاهتمام الذي يجب أن نوليه لما نسميه بأدب "الهامش"؛ ذلك أن العلاقة بين المتن والهامش أصبحت علاقة تجاور وتجاوز، وتماثل وتفاعل. فكثيرا ما يفاجئنا "الهامش" بإمكاناته الجمالية الكبيرة وطاقاته الوظيفية اللا محدودة.

ولذلك فإن أهم ما نسعى إليه خلال هذه المداخلة هو اختبار فعالية النصوص الموازية خلال نص شعري من القرن الهجري الحادي عشر[1]، لدراسة تجليات الشعرية ومضمراتها وتحولاتها المختلفة، وما تمارسه النصوص الموازية من تنوير أحيانا ومن تعتيم في أحيان أخرى كثيرة.

وهذا النص الشعري موضوع الدراسة يحمل كل ما يمكن أن يجعله هامشا بامتياز؛ فهو لشاعر مغربي عاش إبان الفتن والاضطرابات التي عرفتها أواسط القرن الحادي عشر الهجري (ت1060هـ)، في مجال جغرافي بعيد عن الحواضر الكبرى ومراكز اتخاذ القرار السياسي والثقافي (تارودانت). كما أنه لشاعر فقيه اختار أن يخط كتبه بنفسه، غير أنه ناب عنه ابنه في جمع ديوانه الشعري. ذلك أن جمع الأشعار كان مما يعيب العلماء الكبار، في ثقافة تحتفي بالعالم وتعتبر الأدب والشعر مجرد تحلية وتكملة لثقافته الفقهية والشرعية.

1- الأحكام وتوجيه القراءة:

لقد أدرج جينيت ضمن المتعاليات النصية transtextualité كل ما يجعل النص في علاقة صريحة أو ضمنية مع نصوص أخرى، حيث أشار بالإضافة إلى النص الموازي le paratexte إلى أربعة مكونات أخرى من ضمنها النصية الواصف la métatextualité وهي التعليق على النص بواسطة نص آخر والتي أدرجها بعض الباحثين ضمن الخطابات "التي تسعى إلى التأثير في القارئ وتغيير تمثلاته واعتقاداته وتنشيط معارفه السابقة، وتوجيه استراتيجياته القرائية"[2]. وقد أدرجت هذا المكون في سياق الحديث عن النصوص الموازية لما كان له من دور في توجيه قراءة هذا الديوان، ولما له من تأثير على مختلف مكوناته القرائية.

إن هذه الخطابات التوجيهية سواء أكانت من المؤلف أو من ينوب عنه، أو من قبل ناقد أو متتبع لا يجب أن تعدو "قراءة ممكنة" أو مقترح قراءة، وذلك حتى لا تكون القراءة الوحيدة المعززة بأواصر القرابة العائلية أو الفكرية مع المؤلف، أو المدثرة بسلطة التأليف أو النقد أو التأريخ... وحتى لا تمارس فعل التوجيه الذي يحيق بالقراءة بمختلف مستوياتها ويحد من ديناميتها.

فتهديد القراءة في هذا المضمار يزيد من عزلة النص وهامشيته وإقصائه بقصد أو من دونه؛ ذلك أن النص "الهامشي" جغرافيا أو زمانيا أو فنيا يصبح نصا بعيدا ليس طوع اليد يسهل الحصول عليه، لتفنيد تلك الأحكام النمطية عنه. فتصبح رحلة البحث فيه وعنه غير مأمونة العواقب، قد لا يلوي منها الباحث على شيء بعد طول بحث وتقص. فيفضل البحث في أدب المركز المجمع على شعريته المتفق على مكانته، لتظل الهوة بين المتن والهامش تزيدها الأحكام العامة اتساعا.

وفي العلاقة بالديوان موضوع هذه القراءة، فقد أسهمت مجموعة من الملاحظات والتوصيفات التي وردت في أثناء بعض الدراسات في صرف النظر عنه تحقيقا ودراسة. فقد ذكر بعض المتقدمين الذين ترجموا للتمنارتي أن "له ديوان شعر، وشعره شعر فقهاء". ولاحظ بعض معاصريه "أن له قصائد

عجيبة في المدائح وغيرها، ربما كان الخلل من جهة العروض في قليل من أبياتها"[3]. بينما تناقل المتأخرون أن للرجل "ديوان شعر مبتور" لم يبق منه إلا الباب الرابع الخاص بالمراثي، إلى جانب بعض المقطعات الأخرى"[4]...

هذه الملاحظات جعلت الباحثين –إلا أقلهم5– ينصرفون عن دراسة التمنارتي الشاعر ويهتمون به في المقابل محدثا ومؤرخا ومفهرسا. فلم ينل ما ناله معاصروه من اهتمام. فقد حقق ديوان محمد المرابط وابنه محمد[6] كما درسا دراستين وافيتين[7]. وطبع ديوان لحسن اليوسي طبعة حجرية منذ زمان، كما درس شعره في العديد من الدراسات الأكاديمية[8]. وجمع شعر أبي سالم العياشي وقدم تقديما رائقا،[9] كما درس دراسة ماتعة[10] أغنت المكتبة الأدبية والنقدية المغربية.

ولا نحتاج إلى التذكير أن مثل هذه الأحكام، سواء في بعدها التوثيقي (البتر)، أو في بعدها الفني (الكسر في الوزن) (شعر الفقهاء) لا زالت تلاحق الشعر العربي في المغرب عموما بطريقة صريحة أو مضمرة. مما يجعله يظل بعيدا عن الأضواء؛ (فمعظم الدراسات التي تحدثت عنها قبل قليل لا زالت مرقونة في المكتبات الجامعية يقتصر الاطلاع عليها على فئات محدودة).

فكيف يمكن لملاحظات غير معللة علميا، وتوصيفات معممة تفتقر إلى التتبع والاستقصاء، أن تحرم المتلقين من تراث أدبي يحمل الكثير من الإبداع و يرتقي درجات في سلم الجمال؟ !

2– العناوين وتسييج القراءة:

تحدث جينيت وآخرون عن العنوان، وميزوا فيه بين العنوان الرئيس والعناوين الفرعية، ففصلوا في بنياتها ووظائفها. وخصوصا هنري ميتران الذي فصل القول عن الوظائف المختلفة للعناوين. وبالنظر إلى العناوين الداخلية التي سنركز عليها اهتمامنا هنا، فهي "عناوين مرافقة أو مصاحبة للنص، وبوجه التحديد في داخل النص كعناوين الفصول والمباحث والأقسام والأجزاء..."[11]

ورغم أن جينيت ذكر أن العناوين الداخلية أقل مقروئية، وأن حضورها محتمل وليس ضروريا وإلزاميا... فعندي أن قراءها نوعيون؛ فهم إما مهتمون لا يكتفون بقراءة العنوان الرئيس فيعملون على تصفح الكتاب والاطلاع على مختلف تفاصيله. وإما قراء متخصصون يسعون إلى أن يكون الكتاب بين أيديهم... وبالإضافة إلى الوظائف التعيينية والإغرائية والإيديولوجية للعناوين، ومناقشات جينيت لها. فإننا نشكك في السلامة الأخلاقية للكثير من العناوين، فبالإضافة إلى حضور الإغراء على حساب التعيين والوصف، فإنه يسلك مسالك تروم الإيقاع بالقارئ/ المستهلك، برفع نسب المبيعات.

وبالعودة إلى ديوان التمنارتي فإننا لم نطلع على عنوانه الأصلي الذي ضاع مع الصفحات الأولى في النسختين المعتمدتين في التحقيق. ولذلك سنركز الاهتمام على العناوين الداخلية، والتي نرجح

أن جامع الديوان، وهو ابن الشاعر، قد وضعها بمباركة من والده، وبتأثر بالجو الثقافي العام السائد في المرحلة. وقد جاءت العناوين الداخلية على الشكل الآتي:

الفصل	عنوانه	مضمونه	حجمه
الأول	"في الهزل"	منوعات شعرية في مواضيع مختلفة(مدائح، إخوانيات...)	39نصا (وقد لحقه البتر)
الثاني	"في الممادح النبوية وما جرى مجراها"	المدائح النبوية	13 نصا
الثالث	"في الوسائل"	التوسل بالرسول (ص) وغيره	10 نصوص
الرابع	"في المراثي وما جرى مجراها"	الرثاء، بالإضافة إلى قصيدة في رثاء ملوك المغرب	10 نصوص

فجامع الديوان يروم من خلال عنوان الفصل الأول "في الهزل"، وهو أكبر الفصول، أن يوجه القارئ إلى أن كل ما عدا المدح والتوسل والرثاء، إنما هو من قبيل "الهزل" الذي لا نفع من ورائه. وهو موقف حاضر بقوة لدى الكثير من الشعراء المغاربة الذين يعتبرون الشعر في غير مدح الرسول (ص) إنما هو لغو لا طائل من ورائه. كما أنه موقف منسجم مع خصوصيات الثقافة المغربية التي تولي الأهمية القصوى للعلوم الشرعية وما يدور في فلكها. وفي المقابل لا يعدو الأدب والشعر في الكثير من بنياتها أن يكون رياضة للأذهان ومجالا للاشتغال في أوقات الراحة.

ومن جهة أخرى فهذا الذي يسميه الجامع بـ"الهزل" قد تجاوز نصف الديوان. مما يجعل واقعه الكمي والكيفي يستعصي على الأسيجة التي حاول الجامع ومن خلاله الشاعر أن يحيطاه بها.

كما أن الهاجس التأليفي الذي عادة ما يرافق العلوم الشرعية يبدو متمكنا من جامع الديوان، وهو يقسمه إلى أربعة "فصول". وهو مظهر من مظاهر الامتداد الذي تعرفه هذه العلوم في فضاءات أدبية تبدو ظاهريا مختلفة عنها. وهو امتداد وتوسع يبدو بوضوح من خلال تحليل شعر الشاعر.

كما تظهر نزعة التسييج التي يمارسها الجامع من خلال العناوين الداخلية في هذا النزوع "التغريضي"، الذي يروم بطريقة خفية تثبيت مجموعة من "التوجهات" و"الاختيارات" ذات الطبيعة الإيديولوجية وتمريرها عبر هذه "العناوين". فضخّم بعض الأنماط الصغرى إلى أن أوصلها إلى مرتبة الغرض (التوسل، الرثاء)، وقلص بعض الأغراض الكبرى إلى أن أدرجها ضمن "الهزل"؛ كما هو الحال

مع مدائح الشاعر لأمراء وقته وإخوانياته. ثم بعد ذلك خلق غرضا جديدا وهو "الهزل" ومحاولة حده عمليا بأنه كل ما هو غير مدح للرسول (ص) وتوسل به ورثاء لعلماء المسلمين وأئمتهم.

3- الاستهلال/ التقديم وتوحيد اتجاه القراءة:

ذكر جنيت ودريدا وغيرهما الاستهلال préfacielle instance وهو عند جينيت "كل ذلك الفضاء من النص الافتتاحي liminaire (بدئيا préliminaire كان، أو ختميا postliminaire والذي يعني بإنتاج خطاب بخصوص النص، لاحقا به أو سابقا له"[12]وتحدث عن الاستهلال الداخلي préface internes الذي يتموقع داخل النص و"يعمل كنص واصف أو شارح للنص الأصلي"[13]، وأكد جينيت على أن تحديد مرسل الاستهلال من المواضيع الشيقة بالنسبة إليه. غير أنه في حديثه عن وظائف الاستهلال وسعيه المتواصل لمحاصرة أكثر الظواهر دقة لم يشر إلى لعبة الإخفاء التي يمارسها الاستهلال، مما يؤدي بالضرورة إلى تحنيط القراءة غير المتيقظة، نظرا لما يسعى إليه "المستهل" لجعل القراءة التي يقترحها هو أو من ينوب عنه وحيدة يحيطها بنوع من التقديس، ويسبغ عليها وحدانية وفرادة.

وهو ما يبدو بوضوح من خلال مجموعة من الاستهلالات التي يظهر فيها السعي لاصطناع جودة للقراءة من منظور مغرق في الإيديولوجية والرغبة في توحيد القراءة وشل أجهزتها الدينامية.

فنجد أحد الاستهلالات ورد فيه: "**ومن ذلك ما أنشده في بعض المتنزهات أيام الربيع على طريق التورية:**

تبدت لنا البطحاء في زي حسنها عليها ثياب سندس ومطارف

تبدت فتاة أقبلت بين تربها يبايعن والأطراف منها مرادف

ذوائبها مرصعات كأنها عروس الملا تهتز منها المعاطف[14]

وفي استهلال آخر يقول:

"**فمن ذلك ما أفرغ في قالب التورية في الشوق لمكة ومنية فريضتها، بتراجم ألفية ابن مالك حسبما يبدو لمتأمل تيجتها**"[15]

فالمستهل ينبه ويوجه إلى أن ما جاء في القصيدتين هو على سبيل "التورية" وذلك حتى لا يقصر المتلقي فهمه على المعنى الأول، أو على الأقل يتجاوزه بسرعة إلى المعنى الثاني. وخصوصا إذا كان هذا المعنى الأول فيه حديث عن الفتيات الجميلات والذوائب المرصعات والخدود، في مجتمع ثقافي يحتفي بعلوم الشريعة والحقيقة ويوليها الأهمية القصوى.

فرغم أن التورية، والتي تسمى الإيهام أيضا، هي إطلاق لفظ له معنيان قريب وبعيد، ويراد البعيد منهما. فإن هذه الازدواجية هي من أهم جمالياتها، بالإضافة إلى لعبة الحضور والغياب بين المعنى الأول والمعنى الثاني، بواسطة التعمية والإيهام. ورغم أن المعنى الأول غير مقصود فهو الحامل الجمالي الذي يوصل إلى المعنى المراد.

وإظهار الأهمية importance من أهم وظائف الاستهلالات الداخلية في الديوان، وخصوصا الأهمية الدينية. وذلك بتوظيف "الرؤيا"، وهي بنية تكاد تكون نمطية لدى مداحي الرسول (ص) منذ "بردة" البوصيري المشهورة[16]. يقول في أحدها: "**ومنها التي أنشدها في أول مرة، ثم أراد في أثنائها تركها، فرأى في منامه قوما جلوسا حسان الهيئة، فقصد لهم حتى اقترب منهم، فقالوا له: ارجع حتى تأتي بقصيدتك التي شرعت فيها. فانتبه فأكملها وتخيلهم مداحيه صلى الله عليه وسلم...**".[17]

فبغض النظر عن الوظائف الجمالية المختلفة لهذا التقديم، والمستمدة أساسا من كونه بنية نمطية في عيون المدائح النبوية، فإن الجامع ومن خلفه الشاعر يريدان إظهار الأهمية، بنظم الشاعر ضمن مداحي الرسول "حسان الهيئة"، بما لقوا من استحسان مدائحهم وتلقيها بالقبول. ومن مظاهر إظهار الأهمية اعتبار هذه القصيدة هي التي سلكت الشاعر ضمن هذه السلسلة المباركة. ولما تلقوها بالقبول والاستحسان وهم الخبراء بهذا النوع من الأشعار والمجربين لمسالكه والسابقين له بإحسان، فالأولى بالمتلقي العادي أن يتقبلها لتقبلهم ويستحسنها لاستحسانهم.

وفي استهلال آخر يحاول المستهل صنع الإقبال لقصيدته لأنها تحسن العاقبة وتنزل الغيث: "**ومنها في طلب الغيث وأمور شتى عرضت فحسن الله في جميعها العاقبة، وهي...**"[18]. فلم يترك القصيدة تحقق الإقبال عليها من خلال إمكاناتها الجمالية الذاتية وطاقاتها الشعرية الخاصة، بل تسعى إلى استقطاب اهتمام المتلقين بما هو خارج الشعر؛ مما يختلط فيه الشعر بالتصوف، ويحاول اصطناع أهمية براغماتية لما/إذا افتقدت أو توارت الأهمية الشعرية.

وفي سياق إظهار الأهمية يقدم الجامع لموشح في المديح النبوي بقوله: "**ومنها المولدية البديعة الحسنة التخلص والبراهين، التي أنشأها في ربيع الأول سنة أربعة عشرة وألف سماها بنور العين، وهي هذه:**"[19]

فيسعى في البدء إلى تجنيس هذا النص وإدراجه ضمن نمط "المولديات" التي تقال بمناسبة المولد النبوي الشريف، يتم فيها مدح الأمير إلى جانب مدح الرسول (ص)؛ فتستمد أهميتها من موضوعها ومن مناسبة قولها.

وهي "بديعة" موفورة الحسن وغنية بأساليب البديع المختلفة. كما أنها "حسنة التخلص"، وهو من أهم مظاهر بديعيتها. فرغم تعدد موضوعاتها فلا تحس بالانتقال بين مكوناتها. وهي "حسنة البراهين" مما يتجلى في حجاجية موضوعاتها وإقناعية مضامينها وأفكارها. ثم إن عنوانها "نور العين" مما يتوافق والقافية

والـروي المختـارين، ومكانـة هـذا الموشـح بـين قصـائد الـديوان ولـدى الشـاعر ومكانتـه المفترضـة لـدى القـارئ أيضا.

فترصـيص هـذه المكونـات "المولديـة، البديعـة، الحجـاج، المكانـة الاعتباريـة" يفضـي إلـى نتيجـة منطقيـة بـإيلاء القصـيدة مكانـة مهمـة قبـل قراءتهـا، والاهتمـام بجوانـب محـددة فيهـا، ممـا يصـب فـي "التوحيـد" الذي تحدثنا عنه.

خاتمة:

وختامـا، فإننـا نصـل مـن خـلال التحليـل السـابق إلـى أن للنصـوص الموازيـة أهميـة كبيـرة فـي هـذا الـديوان، كمـا أنهـا مجـال بكـر للبحـث فـي الأدب العربـي فـي المغـرب. وقـد كـان جـامع الـديوان ومـن خلالـه الشـاعر واعـين بأهميـة هـذا المكـون ودوره فـي تحقيـق الإقبـال علـى القصـائد. غيـر أن أهـم مـا توصـلنا إليـه هـو أن النصـوص الموازيـة ليسـت بالضـرورة أداة فعالـة لخلـق الشـعرية إذا لـم تحسـن قراءتهـا وموضـعتها فـي أسـيقتها الصـحيحة؛ بـل إن مبـادئ الشـعرية الأساسـية فـي القـراءة تـدعونا إلـى التنبـه إلـى دور هـذه النصـوص أحيانـا فـي توجيـه القـراءة وتسـييجها وتوحيـدها، ممـا يسـتدعي مـن المتلقـي مزيـدا مـن التـيقظ أمـام لعبـة الإخفـاء التي تمارسها.

الهوامش :

[1] ديوان عبد الرحمان بن محمد التمنارتي: تحقيق عبد الفتاح شهيد، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة في الأدب العربي، كلية الآداب ظهر المهراز، فاس، 2001.

[2] الاستثمار البيداغوجي للنصوص الموازية في منهاج اللغة العربية، إعداد: عبد العزيز لحويدق، بحث فائز بجائزة المباراة الوطنية الثالثة لإنتاج الوثائق التربوية، 2002/2001. ص: 10.

[3] وفيات الرسموكي، حققه وهيأه للطبع العلامة محمد المختار السوسي، مطبعة الساحل، الرباط،ط1، 1988 رقم 99، ص24.

[4] الشعر الدلائي، عبد الجواد السقاط، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط1، 1985، ص 74.

[5] فقد اعتنى السيد اليزيد الراضي من أساتذة كلية الآداب بأكادير في مناسبات مختلفة بشعر التمنارتي وكتبه، وخصوصا تحقيقه العلمي لكتابه "الفوائد الجمة ".

[6] أصدر الدكتور عبد الجواد السقاط تحقيقا لديوان أبي عبد الله محمد المرابط الدلائي سنة 2007 ، كما أصدر مؤخرا تحقيقا لديوان ابنه محمد 2014.

[7] نشير هنا إلى دراسة الدكتور حسن جلاب "أبو عبد الله محمد المرابط الدلائي: عالم الزاوية الدلائية وأدبيها"، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش 1997. وإلى دراسة الدكتورة فاتحة سلايعي "محمد بن محمد المرابط الدلائي أديبا" أطروحة لنيل الدكتوراه، كلية اللغة العربية، مراكش.

[8] نشير على سبيل الذكر لا الحصر إلى دراسة محمد اجواهري، المرقونة بخزانة كلية الآداب بالرباط، وإلى أطروحة الدكتور الحسين آيت مبارك "الإبداع الشعري وقضايا النقد الأدبي لدى لحسن اليوسي" المرقونة بكلية اللغة العربية بمراكش.

[9] نتحدث هنا عن عمل الأستاذة نزهة بنسعدون "المديح النبوي في الثغر الباسم"،وهي رسالة مرقونة بكلية الآداب بالرباط.

[10] نعني دراسة الدكتور عبد الله بنصر العلوي "أبو سالم العياشي: المتصوف الأديب"، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1998.

[11] عتبات (ج.جينيت من النص إلى المناص)، عبد الحق بلعابد، منشورات الاختلاف، ط1، 2008، ص:124-125.

[12] عتبات، ص:112.

[13] عتبات، ص: 115.

[14] ديوان عبد الرحمان بن محمد التمنارتي، ص:106-107.

[15] نفسه، ص:131.

[16] ينظر في ذلك كتابنا "الاشتغال الجمالي للمعنى الأخلاقي: دراسة في شعرية المدائح النبوية"، الصادر ضمن منشورات دار الحامد، الأردن،2015.

[17] ديوان عبد الرحمان بن محمد التمنارتي، ص: 156.

[18] نفسه، ص:175.

[19] ديوان عبد الرحمان بن محمد التمنارتي، ص:151.